الاتحاد الأقنومي وسر الإفخارستيا

دكتور

جورج حبيب بباوي

مارس ٢٠١٤

www.coptology.org

الاتحاد الأقنومي

تحية صادقة بمحبة أبدية لكلٍّ من سوستانيس، ومجدي داود، ولكل القراء الذين لديهم عشق إلهي بالغوص في استعلان المحبة الإلهية.

هذه ملاحظات لدفع الحوار إلى الأمام.

أولاً: اللاهوت الأرثوذكسي ليس لاهوت مصطلحات، بل لاهوت شركة تعبِّر عنها المصطلحات التي نُحِتت لكي تحفظ سر المحبة الإلهية والتنازُل الإلهي الذي جاء بالابن الوحيد إلى حياتنا الإنسانية الوضيعة الميِّتة لكي يرفع هذه الإنسانية الساقطة من الموت ومن نير العبودية للدينونة إلى "حرية مجد أولاد الله" (رو ٨: ٢١)، ذات المجد الذي صار للبكر، والذي جعل الرسول يقول إننا "مشابهين صورة ابنه ليكون بكراً بين أخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ٢٩). والرسول يتكلم عن المشابهة؛ لأننا لا نشترك في ولادة الابن الأزلية من الآب، ولكننا نشترك فيما أُعلِن في التدبير في زماننا، أي البنوة التي هي حقاً نعمة، ولكنها -كما ساد بعد القرن الرابع- "نعمة غير مخلوقة"؛ لأنها نعمة إلهية، وهي ذات عمل الله نفسه حسب تعبير رسول المسيح في (١كور ١٢: ١ - ١١)، فالروح هو نفسه الذي يعمل، والعمل نفسه هو النعمة، والنعمة إلهية، وليست شيئاً آخر، وهو ما عبَّر عنه نفس الرسول قائلاً: "الله واحد الذي يعمل الكل في الكل" (١كور ١٢: ٦)، ولو كنا قد وُهِبنا نعمةً غير عمل الله المباشر، نكون قد وضعنا وسيطاً هو النعمة بيننا وبين الابن رب المجد، أو بيننا وبين الروح القدس الرب المحيي، وصار لنا إلهٌ آخر اسمه النعمة.

اللاهوت واحد وعمله واحد غير قابل للتقسيم.

ثانياً: "الحلول النعموي"، تعبير ينطوي على أخطار كثيرة، فهو لا يؤكد أنه ذات الإلوهة العاملة، وهي على سبيل المثال في "التبني"، فليس في الثالوث سوى بنوة واحدة، وهي بنوة الابن للآب، وهي علاقة أقنومية خاصة بالابن، وُهِبَ لنا أن نشترك فيها بالطبيعة الساقطة المستعبدة؛ لكي تتحرر، ولكي تصل إلى ذات العلاقة التي بين الآب والابن، حتى ندعوه "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤ – ٦). والنعمة هنا هي انسكاب حياة الابن فينا للتبني دون أن نفقد طبعنا المخلوق من العدم، تماماً مثل إنسانية المسيح نفسه، التي ظلت إنسانية، لم تفقد إنسانيتها رغم اتحادها بأقنوم الابن، ولكنها صارت "واحداً معه"، أي مع الأقنوم "دون انفصال ولا امتزاج ولا تغيير"، حسب تعبير الاعتراف الأخير في قداسنا القبطي الأرثوذكسي.

ثالثاً: أخشى من ذات التعبير؛ لأن جسد الرب ودمه، ليس نعمة، بل هو أقنوم الابن المتجسد الذي يتَّحد بنا في السر المجيد، وهو لا ينزل إلى مستوى النعمة، بل يُعطى لنا و"عنَّا خلاصاً وحياةً أبدية"، وهو المسيح نفسه ربُّ الكل. وصلوات القسمة بالذات، وهي ترتيب الإسكندرية، تخاطب الرب يسوع نفسه مؤكدةً سر عطاء حياته التي لا يمكن أن تنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين، ليس خوفاً من هرطقة نسطور، ولكن لأن التقسيم سوف يبيد القيامة من الأموات والخلود. فالمسيح يحلُّ فينا ويعطي كيانه لنا، وبذلك الحلول نفسه من أقنوم الابن المتجسد تُستَعلَن النعمة. ولاحظ هنا أن قيامة المسيح نفسه ليست نعمة، بل استعلان قوة الله الكلمة، ولكن عندما توهَب لنا ذات القيامة، فهي نعمة، لكن العمل نفسه –كعمل إلهي– ليس مجرد نعمة حسب المعنى السائد الذي يروِّجه بعض أساقفتنا خوفاً من الامتلاء من المسيح؛ لأن "ملء قامة المسيح"، هو "كمال الحياة الإنسانية في المسيح بالخلود"، وهو ذات خلود المسيح، وليس خلوداً آخر، تماماً مثل قيامة المسيح، فهي هي نفسها قيامتنا نحن على النحو الذي شرحه رسول المسيح في إيجاز في (١ كور ١٥: ١٧ – ٥٦)، وهو إنذارٌ لنا يقول بصوتٍ عالٍ إن القيامة ليست عملاً كونياً يتم بفعل الطبيعة أو حتى القدرة الإلهية، بل تم بالقدرة الإلهية

في المسيح، أي قدرة وعمل الروح القدس نفسه؛ لأن الرب يسوع لم يحصل على نعمة من الروح القدس، بل مُسِحَ بالروح القدس لأجلنا، ولذلك، الروح الذي أقام يسوع، هو ذات الروح الذي يقيم أجسادنا (رو ٨: ١١). ولذلك، لا يجب أن تختفي كلمة الأقنوم تحت غطاء النعمة؛ لأن هذا يمنع عمل الثالوث –لا سيما الابن– من أن يشترك بذاته، أي بالأقانيم في خلاصنا وتحرير طبعنا من الأسر الآدمي.

رابعاً: في السر المجيد، إذ نتحد بالرب يسوع المسيح بواسطة الروح القدس، وبذلك ندخل عمل سر الشركة، أو التدبير حسب تعبير الآباء .. هنا يُبرز لنا الاتحاد الأقنومي، حقائق الحياة أو الخلقة الجديدة على النحو التالي:

١– إن كل ما حدث لإنسانية يسوع، سوف يحدث لنا نحن من ولادة ومسحة وموت وقيامة؛ لكي نؤهَّل لميراث ملكوت السموات، ونكون فعلاً وارثون مع المسيح وورثة الله حسب عبارة الرسول بولس نفسه (رو ٨: ١٧)، وهي ما أعطاه "روح التبني" الذي يشهد أننا أولاد الله، وأننا سوف نتألم لكي نتمجد بذات مجد المسيح (رو ٨: ١٧، يو ١٧: ٢٢). ومجد المسيح لم يكن نعمة من الآب للمسيح، بل مجده الذاتي "مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك (أقنومك) بالمجد الذي كان لي عندك قبل خلق العالم (المجد الأزلي السابق على تجسد ابن الله)" (يو ١٧: ٢٥).

هذا هو مجد الإلوهة الذي يُوهَب لنا، وهو كعملٍ إلهيٍّ مباشرٍ، لم يصدر عن نعمة، ولذلك، الأصل والمصدر ليس النعمة، بل الأقنوم. ولكن قبول ما يُعطى هو ما يجب أن يقال إنه نعمة؛ لأنه لا ينتمي إلى الطبائع المخلوقة، ولا يمتُّ للإنسانية بصلة، بل هي التنازل الإلهي والعطاء.

٢– إن اتحادنا بالمسيح في الإفخارستيا هو اتحادٌ أبدي غير قابلٍ للفصل؛ لأنه قبل أي شيء آخر هو اتحاد محبةٍ (رو ٨: ٣٥ – ٣٩)، فقد رفع بولس كل قوة مخلوقة وأكَّد عدم فاعليتها وعدم قدرتها على أن تفصل بيننا وبين المسيح.

خامساً: لقد مرَّ الفكر القبطي بمرحلة عسيرة، وهي مرحلة الاختزال *Reductionism* والتي تجلت في محاصرة التعليم في عباراتٍ وصلت إلى حدِّ تحديد الشركة في الثالوث بمدى وجود أو عدم وجود حرف الجر "في" في عبارة معينة. كما تجلت في صورة أخرى أشنع، وهي "الحلول المواهبي".

بالطبع، بشكلٍ عام، لا ضرر من تحديث أو تقديم مصطلحات جديدة، لكن فليكن معلوماً أن المصطلحات هي حدودٌ ترسمُ دائرةً بين ما هو صواب وحقيقي، وما هو عقلي وخيالي (لا صلة له بواقع الحال). غير أن ما حدث لدينا طوال أربعين عاماً هو تقديم العقيدة بأسلوب جماهيري شعبي، بطريقة مختزلة في عبارات وكلمات ومصطلحات تنتمي إلى دائرة الخيالي لا الحقيقي، فإذا أضفنا إلى ذلك إنكار الحوار والنقاش، وكأن الواعظ أو الكاتب هو الله نفسه، كان من الطبيعي أن نصل إلى الحد الذي قال فيه البعض إننا نتناول الناسوت دون اللاهوت. وهكذا، جاء التقسيم والفصل ضد السر نفسه، وضد تجسد ابن الله غير المنقسم؛ لأن الانقسام هو الفساد الذي أدخلته الخطية، وهكذا بات عمل رئيس الكهنة الرب يسوع نفسه معرَّضاً للزوال. فهو، أي رئيس الكهنة، لا يمكنه أن يقربنا إلى الآب، إن كان إنساناً فقط، وإن كان إلهاً فقط، تعذَّر عليه القضاء على الموت، باعتباره المانع الحقيقي من الاتحاد، فهو فقدان الحياة الذي جاء مع الخطية. ولذلك، العمل الإلهي للمتجسد، لا يمكن تقسيمه، فهو وسيطٌ كإنسان عند الآب، وكإلهٍ عند البشر دون أن ينقسم، وهذ المفهوم هو مجمل المقالة الرابعة ضد الأريوسيين للقديس أثناسيوس (راجع الترجمة التي أنجزها د. هيب قزمان، ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة).

سادساً: إن اتحاد الطبيعتين في أقنوم الكلمة المتجسد، يعطي للكلمة مجال العمل الإلهي في تجديد الإنسانية، وقبول الإنسانية عند الآب والروح القدس؛ لأنه يجمع في كيانه الإنسانية المحتاجة إلى الحياة، ولذلك هو يوزِّع كإلهٍ متجسِّدٍ، جسده ودمه على المتناولين. ولولا تجسده، ولولا إلوهيته، ولولا اتحاد الطبيعتين؛ لَتعذَّر أن يكون الربُّ في كل قداس، وعلى كل مذبح؛ لأنه بقوة إلوهيته التي أزالت كل أشكال الانفصال ليجمع كل

المتفرقين إلى واحد، فهو متى ارتفع عن الأرض، أي عن كل المقاييس الزمانية والأرضية، يجذب إليه الجميع (يو ١٢: ٣٢، يو ١١: ٥١). فهو لا يوزَّعُ على المذابح، بل يجمع كل المذابح بالإرادة الإلهية المستعلَنة في تجسده، لكي يجعل الكل واحداً فيه ومع الآب، وهو مجمل صلاته الأخيرة في (يو ١٧). ولذلك، نحن نقول: "سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة"؛ لأننا نرتفع فوق الانقسام، فهو لا ينزل من السماء لكي ينقسم، بل الذين قيل عنا: "أبناء الله المتفرقين". هو الذي سوف يجمعنا إلى واحد (يو ١١: ٥١)، وهنا لا بُد لنا أن ندرك أن القوة الفاعلة هي قوة الله الكلمة خالق كل الأشياء، التي تجمع توحِّد.

أخيراً: عندما حذَّر القديس كيرلس الكبير من تقسيم المسيح، قال نصَّاً في الرسالة الرابعة إلى نسطور:

> "نحن نعترف بمسيحٍ واحدٍ وربٍّ. ليس إننا نعبد إنساناً مع الكلمة، حتى لا تؤدي كلمة "مع" إلى الإشارة بأنه يوجد انقسام، ولكننا نعبد واحداً هو نفسه الرب حيث أن جسده خاصٌ بالكلمة وحده ولا يخص غيره، فهو الذي باتحاده بالجسد يجلس بالجسد عن يمين أبيه. فليس ابنان يجلسان مع الآب، بل يجلس كابنٍ واحدٍ متَّحدٍ مع جسده الخاص" (راجع رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، مركز دراسات الآباء بالقاهرة، سلسلة نصوص الآباء، ٢١، ص ١٥ وقد راجعنا الترجمة على الأصل اليوناني للإيضاح فقط).

ماذا يعني رفض الاتحاد الأقنومي؟

يجيب القديس كيرلس:

> "إذا رفضنا الاتحاد الأقنومي سواء بسبب تعذُّر إدراكه أو بسبب عدم قبوله، نسقط في التعليم بابنين، فلا توجد ضرورة تدعونا للتمييز، والقول إنه من ناحية هو إنسان له وضع خاص متميز، وقد كُرِّمَ فقط بالاسم، أي اسم

الابن، لكن في حقيقة الأمر إن كلمة الله متميِّزٌ؛ لأن له الطبيعة، له البنوة، وله الاسم الخاص بهذه الحقيقة (كابن)، لذلك فإن الرب الواحد يسوع لا ينبغي أن يقسَّم إلى ابنين" (المرجع السابق، الرسالة الرابعة إلى نسطور: ٦، ص ١٥ – ١٦).

السجود وعبادة الكلمة المتجسد

يقول القديس كيرلس في الرسالة الثالثة إلى نسطور:

"إذ نعترف بكل تأكيد أن الكلمة اتحد بالجسد أقنومياً، فإننا نسجد لابنٍ واحدٍ الرب يسوع المسيح. نحن لا نُجزِّئ ولا نفصل الإنسان عن الله، ولا نقول إنهما متحدان الواحد (اللاهوت) مع الآخر (الناسوت) بواسطة الكرامة والسلطة؛ لأن هذا هُراء ... بل نعترف بمسيحٍ واحدٍ فقط الكلمة من الله الآب مع جسده الخاص" (المرجع السابق، ص ٢٤).

وعلى هذا، فالسجود للرب المتجسد في العهد الجديد يختلف اختلافاً جذرياً عن السجود لله في العهد القديم؛ لأن من يسجد، إنما يسجد في الابن بالروح القدس (يو ٤: ٢٤). فالروح والحق –حسب شرح القديس كيرلس السكندري– هو الروح القدس، والحق هو المسيح حسب قول الرب نفسه "أنا هو الحق"، ولذلك السجود هو للرب الواحد الذي له ذات طبيعة مَن يسجد، أي الإنسان المؤمن، وله طبيعة لا تخص من يسجد، وهي الإلوهة؛ لأن اتحادنا بالمسيح الرب الواحد يجعل سجودنا "في المسيح"، أي سجود مَن صارت له ذات كرامة ومجد الناسوت الخاص بالمسيح، فهو ليس عبادة حسب العهد القديم، بل اتحادٌ في المجد وامتلاءٌ من النعمة الفائقة يجعلنا نسجد بدهشة المحبة متحدين مع الرب في مجده الإلهي، أي مجد البنوة؛ لأننا نسجد كبنين، وسجود البنين ليس كسجود العبيد؛ لأنه سجود المحبة لا سجود العبودية.

الاتحاد الأقنومي والصليب، وما غاب من الوعي المعاصر

يقول القديس كيرلس:

"نحن نعترف أنه هو الابن المولود من الله الآب، الإله الوحيد، ورغم أنه غير قابل للتألم بحسب طبيعته الذاتية، فقد تألم بجسده الخاص من أجلنا -حسب الكتب- وهو غير قابلٍ للتألم، إلَّا أنه جعل الآم جسده خاصةً به عندما صُلِبَ جسده" (المرجع السابق، الرسالة الثالثة إلى نسطور، ص ٢٧).

وهنا يجب الشديد على العبارة التالية للقديس كيرلس:

"لأنه بنعمة الله، ولأجل الجميع ذاق الموت (عب ٢: ٩) **بإخضاع جسده الخاص به للموت**، رغم أنه حسب الطبيعة هو الحياة، وهو نفسه القيامة (راجع يو ١٠: ١٨، مع أع ٤: ٢ لي سلطان أن أضع (حياتي) وسلطان أن آخذها أيضاً) لكي بواسطة قوته التي تفوق الوصف، إذ قد داس الموت في جسده الخاص، صار البكر من الأموات (كولو ١: ١٨)" (المرجع السابق، ص ٢٨).

لذا كانت ثمرة إخضاع الكلمة المتجسد جسده للموت "انحلال سلطان الموت" (المرجع السابق: ١١، ص ٢٨)

وهكذا يتضح لنا أن الرب أخضعَ جسده الخاص للموت بقوته وإرادته، بعكس خرافات العصر الوسيط والانحلال الروحي والثقافي الذي جاء بفكرة دفع الثمن للآب، أو سكب غضب الآب على الابن. وغنيٌّ عن الذكر أن كل هذه الأفكار سادت في الأوساط القبطية بسبب غياب الآباء من الكتابات القبطية المعاصرة إلى أن بعثها من الغياب القمص متى المسكين ود. نصحي عبد الشهيد، وكلاهما من الرواد، وكلاهما دفع ثمن أمانتهما للتسليم الرسولي.

الاتحاد الأقنومي يحفظ كرامة ومجد سرِّ الشكر

في المقالة الرابعة ضد تجاديف نسطور، فقرة ٥، يجيب القديس كيرلس متسائلاً في نصٍّ مطوَّلٍ على تهكُّم نسطور على سر الشكر، فيقول:

"ماذا كانت حاجة الكلمة إلى الجسد، لو كان الجسدُ وحده كافياً وقادراً أن يمحو ويُبيد الموت، ويحل سلطان الفساد الذي ساد علينا؟ وإذا كنت تظن (يا نسطور) أن الذي جاء لخلاصنا ليس الله الكلمة، وأنه أُرسِلَ لأجل خلاصنا، وصار مثلنا، بل –كما تقول أنت يا نسطور– إن الذي أُرسِلَ هو الجسد المنظور، وأُرسِلَ من عند الآب، فكيف لا يظهر جلياً أننا جئنا للاشتراك في جسدٍ بشري لا يختلف عن أجسادنا؟ كيف تسخر ضاحكاً عندما تسمع الأقوال التي تؤكد التجسد؟ أنت تقول بعد ذلك: سوف أُردد هذه الكلمات الجارحة: الرب المسيح عندما كان يتكلم عن جسده قال: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياةٌ فيكم" (يو ٦: ٥٣)، والذين سمعوه لم يفهموا السر الفائق الذي كان يتحدث عنه، وفي جهلهم كانوا يظنون أنه يقدم لهم أكل اللحم البشري *Cannibalism*".

ويجيب القديس كيرلس:

"كيف أن هذا ليس أكلَ لحمٍ بشري؟ وبأي أسلوبٍ نقول إنه سِرٌّ فائق؟ أليس لأننا نعتقد بأن مجيء (الابن) هو ذاته تجسده؟ هنا يظهر لنا أن الجسد الذي اتحد به لم يكن جسدُ إنسانٍ آخر، بل جسده. ولذلك كان فيه قوةٌ تعطي الحياة؛ لأنه بشكلٍ خاص، صار له خاصية مَن له القوة لأن يعطي الحياة للكل. لأن حتى النار كعادتها تنقل قوتها الطبيعية الكامنة فيها إلى المواد التي تتصل بالنار، بل تحول الماء البارد إلى ماءٍ ساخن رغم برودة الماء، وهو

خاصٌ بطبيعة الماء. فما هو الغريب أو المستحيل علينا أن نعتقد بأن كلمة الله الآب الذي هو الحياة بالطبيعة جعل جسده الذي اتحد به قادراً على أن يعطي الحياة؟ لأن هذا هو جسده الخاص به وليس جسدَ إنسانٍ آخر، ولا هو جسدٌ مثل أجسادنا. وإذا فصلنا كلمة الله المحيي عن هذا الاتحاد السري والحقيقي بالجسد انفصالاً كاملاً، فكيف يمكن أن تبرهن على أنه واهب الحياة؟ والذي قال: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يكون فيَّ وأنا أكون فيه" (يو ٦: ٥٦)، فلو كان هذا بشراً عادياً مثلنا، وليس كلمة الله الذي صار كواحدٍ منا (مثلنا)، أصبح الأكل هو أكلُ لحمٍ بشري *Cannibalism* والشركة فيه بلا فائدة على وجه الإطلاق. وأنا أسمع المسيح قائلاً: "الجسد لا يفيد ولكن الروح هو الذي يحيي" (يو ٦: ٦٣)، وحسب طبيعة الجسد، هو خاضعٌ للفساد، ولا يستطيع أن يعطي الحياة للآخرين؛ لأن مرض الفساد ضاربٌ بجذوره فيه. ولكن إذا قلنا إن الجسد هو الجسد الخاص بالكلمة نفسه، فلماذا تخترع هذه الأفكار الطائشة والأحاديث التي لا معنى لها، لكن تُعارِض في أن الذي جاء إلينا لم يكن كلمة الله الآب ...".

تهكُّم نسطور على سرِّ الشكر

يسجِّلُ لنا القديس كيرلس في الفقرة ٩٠ من المقالة الرابعة ضد نسطور، ما يقوله نسطور على سر الشكر متهكماً[1]:

"أنت حقاً تقول: ولماذا كما سمعتم وقد اختلط الأمر عليكم ماذا قال الرب وهو يعلِّم تلاميذه معنى السر عندما قال الآتي، وأخذ خبزاً وبعد أن شكر كسره وأعطاه لتلاميذه قائلاً: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، لماذا لم

(١) لعل القارئ يتذكر عندما يقرأ عبارات نسطور كما احتفظ بها القديس كيرلس السكندري، أن هذه العبارات هي ذات العبارات التي وردت للأسف حرفياً على فم المتنيح الأنبا شنودة الثالث عن سر الإفخارستيا.

يقل:"هذا هو لاهوتي الذي يُكسر عنكم"؟ وأيضاً عندما أعطاهم كأس الأسرار، لم يقل: "هذا هو لاهوتي الذي يُسفك عنكم"، بل "هذا هو دمي الذي يُسفك عنكم لمغفرة الخطايا" (لو ٢٢: ١٩ – مت ٢٦: ٢٧، ٢٨)".

وبعد هذا الاقتباس من نسطور، يسأل القديس كيرلس:

"أليس واضحاً للكل أن ما قيل هو حماقةٌ تامة، وقرارٌ مُتعَمَّد أن يحارب التدبير؟ ... هل يوجد شخصٌ واحد تظن أنت (يا نسطور) يفكر ويتجاسر على أن يقول إن كلمة الله قد تحول إلى طبيعة الجسد؟ وإذا أمكن لأحدٍ الاعتراض على أنه عندما أعطى جسده لم يقل: "خذوا كلوا هذا هو لاهوتي الذي يُكسر عنكم، وأن هذا ليس هو دمي، بل لاهوتي الذي يُسفك عنكم"، ولكن لأن الكلمة وهو الله، جعلَ الجسد الذي ولِدَ من امرأةٍ جسده دون أن يتحول أو يتغير بالمرة، فكيف لا يقول لنا دون أي خداع: "خذوا كلوا هذا هو جسدي؟"، ولكن لأنه الحياة؛ لأنه حقاً الله، جعل جسده حياةً ومحيياً".

المسيح فينا بالجسد واللاهوت أيضاً بسبب الاتحاد الأقنومي

لا يمكن أن نتحول إلى الحياة الأبدية، إذا امتنعنا عن تناول جسد الكلمة الذي هو الحياة بالطبيعة. هكذا يعلِّم القديس كيرلس الكبير حقاً:

"جسد الكلمة الذي هو الحياة والمحيي؛ لأنه جعل جسده الخاص باتحادٍ فائق الإدراك ويعلو على قدرات التعبير. وهكذا إذا جئنا للشركة في جسده المقدس ودمه، فإننا ننال الحياة الكاملة المطلقة؛ لأن الكلمة يحلُّ فينا بأسلوبٍ إلهيٍّ بواسطة الروح القدس، وبأسلوب إنسانيٍّ بواسطة جسده المقدس ودمه الكريم" (ضد نسطور ٤: ٥).

اتحاد الكلمة بالجسد هو ذاته اتحاده بنا نحن

في الجزء الثالث من الكتاب الرابع لشرح إنجيل يوحنا، وشرح يوحنا ٦: ٥٢ – ٥٣ يقول القديس كيرلس:

> "عندما نتذوق الجسد، تكون الحياةُ فينا؛ لأننا نحن أيضاً متحدين Syneoumenoi بجسد المخلِّص، بنفس اتحاد الكلمة بالجسد الساكن فيه" (عامود ٥٣٠، راجع الترجمة الإنجليزية الحديثة Ancient Christiam Textes, volume 1 p 236).

هذا الاتحاد بالذات هو الذي يقول عنه القديس كيرلس:

> "هو الذي ردَّ إلينا رتبة آدم وعدم الفساد لأن جسده يختلط anakirnamenon بأجسادنا، وهو لذلك أيضاً هو الخبز السمائي، أي المسيح الذي يغذينا بالحياة الأبدية ويمدنا بالروح القدس، وبالشركة في جسده، يجعلنا نشترك في الله مبيداً الموت الذي جاء من اللعنة القديمة" (شرح يوحنا ٦: ٣٥).

ولعلنا هنا نتذكر أن الجسد والدم ليسا هما اللذين يقيمان الموتى، بل الذي يقيم الموتى هو الذي قال: "أنا أقيمه في اليوم الأخير"؛ لأن هذا الاتحاد الفائق هو اتحاد حياتنا بنفس اتحاد الكلمة بالجسد، إذ لا يوجد نوعان من الاتحاد، ولا توجد قيامتان، واحدة لنا وأخرى للمسيح، بل هي قيامة واحدة من المسيح.

شرح القديس كيرلس للفصل الحادي عشر[1]

يقول القديس كيرلس:

"مَن لا يعترف أن جسد الرب هو معطي الحياة، وهو خاصٌّ بكلمة الله الآب، بل يقول إنه جسدٌ لإنسان آخر غيره، وإنه مرتبط فقط بحسب الكرامة، أي حصل على حلولٍ إلهي، ولا يعترف بالحري أن جسده معطي الحياة كما قلنا لأنه صار جسد الكلمة الخاص به الذي يستطيع أن يهب الحياة لكل الأشياء. فليكن محروماً".

شرح القديس كيرلس:

"نحن نقيم الذبيحة المقدسة المحيية غير الدموية في كنائسنا، ونحن لا نعتقد أننا نقدم جسداً لإنسانٍ مثلنا له دمٌ مثل دمنا، بل نقبل أن هذا هو جسد ودم الكلمة الخاص به المانح الحياة لكل المخلوقات. الجسد الإنساني لا يمكن أن يعطي الحياة. وحتى المخلِّص نفسه شهد عن هذا عندما قال: "الجسد لا يفيد شيئاً، ولكن الروح هو الذي يحيي" (يو ٦: ٦٣)؛ لأن جسد الكلمة الخاص به محيي، وهو فعلاً محيي. وكما قال ربنا نفسه: "كما أن الآب الحي أرسلني، وأنا حيٌّ بسبب الآب، هكذا مَن يأكلني يحيا بي" (يو ٦: ٥٧). وحيث أن نسطور وكل الذين يعتقدون مثله عن جهلٍ، يحاولون إضعاف قوة السر، لذلك السبب عينه كُتِبَ هذا الحرم" (نُشِر النص اليوناني في مجموعة أعمال المجامع المسكونية، وحقق النص E. Schwartz المجلد الأول، القسم الخامس، ص ٢٥).

---

(1) هو الفصل الحادي عشر من الفصول الاثنا عشر، والمعروفة في الغرب باسم الحروم الاثنا عشر لأن كل واحد منها ينتهي بعبارة: "ليكن محروماً".

واضحٌ إذن، من كل ما سبق، أننا إذا قسَّمنا المسيح إلى إله وإنسان، تحولنا إلى آكلي لحوم بَشَرٍ، وواضحٌ أيضاً أنه لم يكن في هذه النتيجة -التي توصَّل إليها القديس كيرلس- أيُ نوعٍ من العبث أو المبالغة، بل لأن الجسد الطبيعي لا يعطي إلَّا ما هو طبيعي، ولذلك "المولود من الجسد جسدٌ هو" (يو ٣: ٦)، ولكن الولادة الأزلية من فوق، رفعت حاجز الزمان والمكان والخطية والموت، بالتجسد والصلب والقيامة والصعود، وصارت كل الخليقة منعطفة نحو الكلمة اللوغوس، مدعوَّة بالبشارة، وثابتة في الخلقة الجديدة بالعمل الإلهي الذي لا يمكن أن يتم سوى بالاتحاد الأقنومي.

شرحٌ مختصر لسرِّ الإفخارستيا

في بعض كتابات القديس كيرلس الكبير

المائدة السماوية

"نحن نعيش في زمان المائدة المقدسة، مائدة المسيح السرِّية التي من عليها نأخذ الخبز الواهب الحياة السمائي؛ لأن الموت الذي قد يكون عند البعض مرعباً ومخيفاً، قد أُبيد" (السجود والعبادة بالروح والحق ك ٣: ٩٧).

"مائدة خبز الوجوه (في العهد القديم) كانت تشير إلى الذبيحة غير الدموية التي نقدمها نحن عندما نأكل الخبز النازل من السماء، أي المسيح الذي وُلِدَ في وسطنا، إلَّا أنه من الآب وفوق الكل، الملك ورب الكل" (المرجع السابق ك ١٢: ٤٥٧).

فكر وقلب وجسد واحد مع المسيح وبالمسيح

"كل من اشترك في المسيح بالاشتراك في جسده المقدس ودمه، يجب عليه أن يكون له فكر المسيح، وأن يتبع خطواته ويحيا مثله" (المرجع السابق ك ٦: ٥٦٩).

"من الغباوة أن يظن أحدٌ أن آدم المخلوق من تراب الأرض، عندما

صار إنساناً، قد نقل إلينا قوة اللعنة التي حلَّت عليه كميراثٍ يشمل كل الجنس البشري، لكن الذي ولد وهو من فوق من السماء، وهو بالطبيعة الله، أي عمانوئيل، والذي شابهنا في كل شيء، عندما ولِدَ وصار آدم الثاني، لا يجعل الذي اختاروا –بالإيمان– حياة الشركة معه، أن لا يشتركوا في غنى حياته الخاصة. نحن نصير جسداً واحداً معه بالإفخارستيا السرِّية Mystic" (جلافيرا على التكوين ك ١: ١١).

"وبعد ذبح الحمل يأمر بأن يدهن بالدم العتبة والباب ... مشيراً إلى أنه بدم المسيح الكريم نحيا في هذا الجسد الترابي آمنين، غير مرتعبين من رعب الموت الذي جاء بالسقوط؛ لأننا نشترك في الحياة، لأن شركتنا في المسيح هي حياة وتقديس ... لأننا هنا في هذه الحياة بشكلٍ منظور، نشترك في المسيح في الجسد المقدس والدم .. " (جلافيرا على سفر الخروج ك ٢: ٢٧١).

وفي شرح مزمور ٢٢، وهو مز ٢٣ حسب الترجمة العربية، يقول عن المائدة:

"هذا ما يعرفه المؤمنون. لأن المائدة التي أُعدِّت لنا، والتي عليها نأكل لكي ننال القوة لكي نواجه كل المعاندين. فالطعام الروحي يقدس النفس ويجعلها قادرة على أن تقاوم الأرواح النجسة ومعلمي الضلال. حقاً إن المائدة السرية حيث جسد الرب تجعلنا أقوى من شهواتنا ومن الشياطين؛ لأن الشيطان يخاف من الذين –بتقوى– يشتركون في السرائر".

وفي العظة الثانية على إنجيل لوقا، يؤكد أن بيت لحم هي بيت الخبز، فيقول:

"لأن الكنيسة هي البيت الروحي للخبز السمائي الذي فيه سِرِّياً الخبز النازل من السماء الواهب الحياة للعالم".

ويؤكد القديس كيرلس، الاتحاد الأقنومي، دون أن يذكر التعبير؛ لأن اللاهوت الحقيقي ليس موضوعاً إنشائياً يسير حسب المصطلحات، فيقول في العظة الرابعة على

إنجيل لوقا: ٣٨:

"الحق نفسه (المسيح) يشهد أنه ليس مجرد إنسان ولد من امرأة، ولم يكن مجرد إنسان أعطاه الابن الوحيد مجده، بل هو الابن الواحد مع جسده المقدس الذي اتحد هو به، عمل كل هذه المعجزات، وهو يُعبَدُ كإلهٍ بواسطة كل الخليقة. لقد دخل بيت حماة سمعان حيث كانت زوجته (زوجة سمعان) مضطجعة في الفراش تأكلها الحمَّى، ولكنه تكلم كإلهٍ: (اتركي الحمَّى وقومي)، وفعلت ذلك، وأعلن أن جسده فيه قوة الشفاء لأنه جسد الله، ولذلك أمسك بيدها وللحال تركتها الحمى. لكن علينا أن نأخذ يسوع عندما يأتي إلينا، نحن نقبله في عقولنا وفي قلوبنا لكي يطفئ نار حمى الشهوات، ويقيمنا ويجعلنا روحيين أقوياء ... ومرةً ثانيةً علينا أن ندرك قوة لمس جسده المقدس؛ لأنه يطرد الأمراض المختلفة والأرواح الشريرة ويدوس على قوة الشيطان ويشفي جموعاً كثيرة دفعةً واحدة .. فكان يضع يديه على المرضى لأننا نحتاج أن نتعلم أن جسده المقدس يحمل قوة الكلمة الذي جعل هذا الجسد، جسده الخاص به ... وسر الإفخارستيا يخلصنا من أمراض نفوسنا" (راجع أيضاً طلبة القداس الإلهي: شفاءً للمرضى، راحةً للمعوزين ...).

كيف يشرح القدس كيرلس سِرَّ الإفخارستيا؟

وفي نفس المرجع (١٩: ٤١٤)، يقول عن سر عشاء الرب في العلية كما يُمارَس في خدمة القداس:

"عندما نرفع الشكر والتسبيح للابن مع الروح القدس لله الآب، نحن نقترب من المائدة المقدسة مؤمنين أننا قد أُعطِينا الحياة، ونلنا بركة لنفوسنا وأجسادنا؛ لأننا نقبل في كياننا كلمة الله الآب الذي تجسد لأجلنا، وهو

الحياة وهو واهب الحياة أيضاً. وإذا درسنا على قدر استطاعتنا عن معنى السر الذي وهِبَ لنا، خلق الله، إله الكون كل شيء لكي يكون عديم الموت، وكان خلق العالم بصلاح الله، ولكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم، وقاد إبليس الإنسان الأول إلى العصيان والتعدِّي، فسقط تحت اللعنة الإلهية لأنه قيل: (ترابٌ أنت وإلى التراب تعود)، ولكن المحبة الحانية للخالق، تفوقت على المعصية؛ لأنه جاء لكي يخلِّص أولئك الذين على الأرض. الله الآب الذي هو الحياة أرسل شعاع مجده المسيح الذي هو الحياة أيضاً؛ لأن الكلمة ولِدَ من جوهر مَن هو الحياة لكي يلد الله الآب الحياةَ للكل بواسطة ابنه بالروح القدس.

كيف يسود الإنسان على الموت ويعود إلى عدم الفساد؟

كان الجسد محتاجاً حقاً لأن يشترك في قوة الله الواهبة الحياة. وقوة الله المحيية والواهبة الحياة هو الابن الوحيد الكلمة. فأرسل لنا الآب مخلصاً وفادياً، فصار جسداً دون أن يتحول إلى جسد، أو أن يصبح ما ليس هو، ولا يبقى الكلمة، ولكن بالحري ولِدَ حسب الجسد من امرأةٍ ومنها أخذ جسده لكي يُدخِل ذاته فينا باتحادٍ غير منحل He might insert Himself into us by indissoluble union وبذلك يجعلنا فوق الموت والهلاك. ولذلك لبس جسدنا وأقامه من الأموات كي يؤسِّس طريقاً يعود فيه الجسد من الموت إلى الخلود كما قال بولس: (كما بإنسان دخل الموت، بإنسان صارت القيامة من الأموات. في آدم يموت الكل، لكن في المسيح سيُحيا الكل). وبعد أن **اتحد بجسدٍ خاضعٍ للموت** رغم أنه الله الكلمة والحياة، أباد من الجسد الفساد، بل جعله واهباً الحياة.

لا تشكُّوا فيما قلته الآن، بل اقبلوا الكلمة بالإيمان، وأمثلة قليلة سوف نجمعها تؤكد ما شرحته؛ لأننا إذا وضعنا قطعةً من الخبز في خمر أو

زيت أو أي سائلٍ آخر، فإن قطعة الخبز تمتلئ بالسائل الذي وضِعَت فيه، وتأخذ ذات طعم السائل نفسه. وعندما يوضَع حديدٌ في النار، فإن قوة النار تملأ الحديد، وتعطي فاعليتها (قوتها) للحديد، ورغم أنه حديد إلَّا أنه يأخذ قوة النار.

هكذا كلمة الله المحيي عندما اتحد هو ذاته بالجسد، وجعل الجسد جسده الخاص. فكيف صار جسده واهباً للحياة ومحيي؟ هو نفسه قال: (الحق الحق أقول لكم مَن يؤمن بي له حياة أبدية)، وأيضاً: (أنا هو الخبز الحي النازل من السماء. الذي إذا أكل منه إنسانٌ يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي. الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم). وهكذا أكلُ جسد المسيح مخلصنا كلنا، وشُربُ دمه الثمين يعطي لنا حياةً في أنفسنا؛ لأنه يجعلنا واحداً معه، وهو يكون فينا ونحن نكون فيه. **هو نفسه فينا بواسطة الروح القدس** بأسلوبٍ إلهيٍّ، بل هو يمتزج[1] بأجسادنا بواسطة جسده ودمه الكريم" (الكتاب الثالث من شرح إنجيل يوحنا – الإصحاح السادس، ابتداءً من عامود ٤٧٢).

يوحنا ٦: ٣٥ "أنا هو خبز الحياة"

"ليس خبزاً مادياً جسدياً يضعُ حداً للجوع، ولا يمنع عن الجسد هلاك الموت، بل بالحري لقد جئت لكي أُعيد تكوين الكائن الحي بالكامل للحياة الأبدية، ويجعل الإنسانية التي خُلِقَت للحياة الأبدية أسمى من الموت. بهذا هو يشير إلى الحياة والنعمة التي تعطى بجسده المقدس؛ لأن خاصية

---

(1) الامتزاج هنا تعبير صحيح يؤكد خصوصية جسد الرب الذي يوهَب لنا ويظل جسد الرب لا يذوب فينا، ولذلك تعبِّر صلاة قسمة القديس كيرلس –والتي نقوم بعمل توثيق وتأصيل لكل عبارة فيها– عن أرثوذكسية حقة.

الحياة التي للابن الوحيد، أي الحياة، تُعطى لنا" (المرجع السابق عامود ٤٧٤).

بماذا وعد المسيح؟

"لم يَعِد بما هو فاسد، بل وعد بالبركة εὐλογία شركة جسده المقدس ودمه الكريم الذي يقيم الإنسان كاملاً لعدم الفساد، فلا يعود يحتاج إلى القوت الذي يحفظ الجسد من الموت ... جسد المسيح المقدس يعطي الحياة لمن يدخل ويحفظهم في عدم فساد عندما يمتزج بأجسادنا. لأنه في النهاية هو جسد مَن هو الحياة بالطبيعة، الذي فيه القوة الكاملة للكلمة الذي اتحد به وصارت له خصائص الكلمة كما لو كان قد امتلأ بكل قوة الكلمة التي منه تنال كل الأشياء الحياة وتبقى كائنةً" (المرجع السابق).

هكذا يجب أن نفهم أننا لا نتكلم عن مصطلح *Term* بل عن حياة، وعن هبة، وعن اتحاد، وعن انتقال الحياة من الكلمة ان الله إلينا بالشركة في جسده ودمه؛ لأن جسد الله الكلمة هو واهب الحياة، وهو أصدق ما يمكن أن يقال عن الاتحاد الأقنومي.

أرجو أن يستمر حوارنا بالمحبة والاحترام الذي يليق بنا كمسيحيين، وأن يسود التعقل على الانفعالات، وأن تحكم المحبة ما نكتب.

دكتور

جورج حبيب بباوي

مارس ٢٠١٤